آراء وافكار

—((●))—

النثر الجاهلي

بعد ان سكنت الضوضاء التي أحدثها الاستاذ طه حسين حول (الشعر الجاهلي) منذ بضع سنين قامت اليوم ضجة أخرى حول (النثر الجاهلي) احدثها تلميذه الدكتور زكي مبارك فقد نشر في جريدة (البلاغ المصرية) منذ حين مقالات بعنوان (النثر الجاهلي) و (نشأة النثر الفني) حرك بها من اقلام كبار كتاب الادب في مصر فانبروا لتأييده في بعض ماذهب اليه ومعارضته في بعضه. وقد احببنا ان ننشر خلاصة من هذا الموضوع الجم الفائدة. الطريف الاثر في آدابنا العربية:

افتتح الدكتور مبارك مقاله الاول بهذا السؤال:

[هل كان للعرب نثر فني في عصور الجاهلية؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والامثال؟]

واجاب على ذلك مخطئاً اولاً من قال ان العرب قبل الاسلام لم يكن لهم وجود ادبي ولا سياسي. وقائل هذا القول اما مسلم يرى ان الاسلام هو الذي خلق العرب ونقلهم من الظلمات الى النور. او مؤرخ يشك في ما اثر عن العرب من الآثار الادبية. ومنهم من غلا فزعم ان عرب الجاهلية كانوا يعيشون عيشة اولية وهذه الحالة لا تسمح لهم بتوله النثر الفني فيهم. وصاحب هذا الرأي هو الموسيو (مرسيه) وشايعه عليه الدكتور طه حسين. ويراد بالنثر الفني مايلجأ اليه الرجل لاذاعة فكرة او دفع شبهة او إيضاح مشكلة. واستبعد الدكتور مبارك ان يكون للامم التي تجاور العرب كالفرس واليونان وغيرهم نثر فني قبل الميلاد باكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر مثله بعد الميلاد بخمسة قرون.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال والدليل على خطأهم في ذلك ان القرآن أشار الى انه كانت لدى العرب كتب تدرس وكتابة تمارس بدليل آية [وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك] فالنثر الفني كان موجوداً وكان يُكتب ويتداول . وعدم وصوله الينا لا يقتضي عدم وجوده . فهو قد ضاع لاسباب : اهمها شيوع الامية وقلة التدوين في الجاهلية وبعد نثرهم عن الحياة الاسلامية التي حدثت بنزول القرآن .

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك وجود النثر الجاهلي على هذه الصورة عاد يبحث عن طريق يثبت به كيف كان نثرهم الفني ؟ وماهو أسلوبه ؟ وماهي الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها كاتبو ذلك النثر في ذلك العصر ؟؟

فذهب الى ان النصوص المروية كأسجاع الكهان وعظات الخطباء وخطب الوفود لا تكفي لتعيين اساليب النثر الجاهلي وهي على قلتها مما وُضع في العصر الأموي لاغراض دينية اوسياسية اوقومية أي بيان فضل العرب . وبعد ان افاض في اثبات رأيه هذا قال : والنتيجة اننا لا نستطيع ان نعطي النثر الفني الجاهلي لوناً نطمئن اليه مادمنا لم نظفر بنصوص صحيحة منه اما ماروي من تلك النصوص فهو منحول مختلق . وهذا الشعر الجاهلي ارتابوا في صحة اكثره مع ان الشعر يسهل حفظه ويعتنى بروايته فكيف بالنثر وهو ليس بهذه المثابة .

فاذا لم تكن النصوص المروية كافية في تعيين أسلوب النثر الفني فما هو الشيء الذي يثبت لنا ذلك ؟

اجاب الدكتور مبارك بانه القرآن . وبديهي ان رأيه هذا فيه مفاجأة حادة يصعب التسليم بها على كثير من الباحثين المسلمين ولذا تغير اتجاه هذا البحث الى المنزع الديني بعد ان كان ادبياً محضاً . فرد على الكاتب طائفة من انبل كتاب مصر امثال الاساتذة محمد عبد المطلب [رحمه الله] ومحمد لطفي جمعة وفريد وجدي . ولا يخفى ان القرآن في اعتقاد المسلمين وحيٌ آلهي فكيف يقول الدكتور انه نثر جاهلي .

وقد اجاب على هذا بان اتخاذه القرآن نموذجاً للنثر الجاهلي لا يلزم منه نفي ان يكون القرآن وحياً آلهياً كما لا يلزم منه ان لا يكون كذلك . وكل ما يريد اثباته هو ان أسلوب النثر الفني الجاهلي إن فقدنا نصوصه الاصلية الجاهلية فاننا نراه مصوراً وممثلاً في آيات القرآن التي ضربت على غرار ذلك النثر وهي تعطينا صورة صحيحة عنه . لانها انزلت لهداية اولئك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجاهليين وارشادهم . ولا يمكن ذلك الا بمخاطبتهم بما يفهمون من الكلام والاساليب . وقد صرح القرآن نفسه بان الرسول لا يُرسل الا باسان قومه ليبين لهم . ولا معنى لهذا الا ان القرآن مفرغ في اساليب العرب النثرية الفنية حتى يتيسر فهمهم لها فيسترشدوا بها . وكأن الدكتور يقول هذا كل ما أريده من قولي ان القرآن نموذج للنثر الفني الجاهلي . اما كونه كلام الله لا كلام البشر او بالعكس فليس من مباحث الادب التي نحن في صددها . وقد تهكم الدكتور باستاذه [طه حسين] الذي قال ان القرآن [لا هو شعر ولا هو نثر وانما هو قرآن] . ثم ختم مقاله بقوله [والخلاصة ان القرآن نثر وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام . فكان لهم بذلك وجود ادبي متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان . وفي هذا قضاء على اوهام من زعموا [ويريد بهم موسيو مرسيه وطه حسين] . ان اول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل . وان العرب لم يكونوا يعرفون من قبل غير الخطب والاسجاع والامثال .

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك انه كان للعرب الجاهليين نثر فني نموذجه القرآن بحث في ان [الزخرف] الذي يهتم به علماء البلاغة هل اتصل بذلك النثر بمقتضى طبيعة اللغة العربية ام وصل اليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان ؟

يرى الموسيو [مرسيه] ان [الزخرف] اتصل باللغة العربية عن طريق الفرس وقال [طه حسين] انه جاءها عن طريق اليونان . وهذه الفكرة ترجع الى [رينان] القائل بان المدنية العربية غريبة عن العرب .

والدكتور مبارك لا ينكر ان كل أُمة [ومنها العرب] تتأثر بحضارة أُمم أُخرى لكنه مع هذا يرى ان [الزخرف] عنصر اصيل في اللغة العربية . وشاهده على ذلك القرآن ايضاً فهو مفعم بالزخرف والصنعة المحكمة التي تدل على ان المخاطبين بها وهم العرب يعرفون ماهي الكتابة الجيدة وما هو الأُسلوب الجذاب . ثم اشار الدكتور الى ان البحث عن زخرف القرآن من اي جهة اتصل به هو بحث خطر : لان الرأي العام الاسلامي لا يسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين ما فيه من العناصر العربية الاصيلة والعناصر الدخيلة . ومع هذا فمعرفة الصفات الاصيلة في النثر العربي ومحاكاة القرآن لا تتيسر لنا مالم يصل الينا مجموعة نصوص صحيحة من النثر الفني الجاهلي تمثل لنا من ماضيه قرنين على الاقل . ومن اين لنا تلك المجموعة وليس في يدنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا القليل من النثر المنسوب الى القرن الذي يباشر ظهور الاسلام ومثله لا يمكن الركون اليه في معرفة طبيعة لغة من اللغات . فلم يبق لدينا الا القرآن وهو اثر عربي صرف لان الرسول الذي تلقاه عربي نشأ في بيئة عربية وبلّغه بلسان عربي . اما تأثر القرآن بآداب اجنبية فاحتمال محض وهو لا يغني من اليقين شيئًا فالزخرف الفني في القرآن طابع اصيل فيه فيكون طابعًا اصيلاً في لغة الجاهليين الذين خوطبوا به وفهموه حق فهمه . واتصال العرب بالفرس قد يحدث تطوراً في هذا الزخرف لكنه ليس العلة الاولى فيه كما ظنه بعض المستشرقين . وهذا الزخرف او الخواص الفنية الموجودة في القرآن وُجدت في النصوص التي عاصرته كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والقواد الذين جاؤا بعده بقليل فتم لنا بهذا ان لغة الجاهليين كان لها نثر فني وان لذلك النثر الفني زخرفًا وصنعة أصيلة فيه كانت تزين نصوصه الكثيرة المفقودة والتي حاكاها القرآن ووصفها لنا ابلغ وصف .

ولم يكتف الدكتور بما مر من امر [الزخرف] بل تعداه الى العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض والبديع فذهب الى انها اصيلة في لغة العرب بدليل وجودها في القرآن ولم تحدث في القرن الاول والثاني كما ظنه مؤرخو الآداب العربية . اذ لا يعقل ان يظهر كتاب كالقرآن بين قوم لم يفكّروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير فالقرآن ظهر في لغة تجاوزت طور الطفولة . وارباب المتكلمون بها لم يكونوا من الأمية بحيث وصفوا بل هم مستعدون — بثقافتهم الادبية — لفهم ما فيه من قواعد البلاغة واساليب البيان قال : بل أنا اذهب ابعد من ذلك فأقرر ان الاسلام كان تاجًا لنهضة علمية وادبية وسياسية واخلاقية واجتماعية في الحدود التي كان يستطيعها العرب .

فالاسلام لا يتصور ان يكون نقل العرب من ظلمات الى نور بل من نور الى نور أتم لكن نورهم الاول لم تصل الينا صوره المختلفة . لاقى الاسلام من المعارضة آلاف المصاعب أفيمكن الاقتناع بانه لم يُقل في معامع تلك المعارضة سوى ما نقل الينا من الخطب والرسائل ؟ اين السنة اليهود العرب والأشراف من قريش ؟ واين ما قاله الصحابة في الرد على خصومهم ؟ وكل ما نقل الينا لا يصف حياة العرب العقلية فلا بد أن يكون هناك آثار ونصوص اندثرت ولو بقيت لفقهنا اسراراً جمة من حياة العرب العقلية وثقافتهم الادبية ومبلغ [الزخرف] الذي كانوا يزينون به لغتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم اشار الدكتور الى ان ضياع آثار الجاهلية كان بالاسلام. وضياع آثار الاسلام كان بحروب الردة حتى كاد القرآن نفسه يتلاشى لولا مافعله ابوبكر من جمعه وتدوينه فلعرب الجاهلية علوم ادبية كانوا يحذقونها قبل ان اتصلوا بالفرس والروم في العهد العباسي: فاذا استكثر المستشرقون ومن لف لفهم من أدبائنا — على ابي الاسود الدئلي ان يكون هو اول من فكر في وضع علم النحو فانا استقل ان يكون هو المفكر الاول. بل اول من فكر هم عرب الجاهلية الذين عرفوا النحو وغيره من العلوم الادبية. وماقلته أتحمل تبعته والدفاع عنه وارجو ان يكون له اثر في فهم البيئة القديمة التي نزل فيها القرآن والتي سموها خطأ عصر الجهل وهي في رأيي عصر معرفة ونور.

ثم استشهد الدكتور بكلام لابن فارس يتنسم منه انه كان للعرب معرفة بالنحو والعروض واصول اللغة وقواعد الكتابة. وهو على الجملة يرى ان العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام. وماحققه الدكتور مبارك قبل الاسلام.

وماحققه الدكتور مبارك في مقاليه هذين يمكن تلخيصه هكذا:

[١] كان لعرب الجاهلية نثر فني.

[٢] زخرف الفن الذي كان في نثرهم اصيل فيه لادخيل.

[٣] آثار النثر الجاهلي ونصوصه لم يصل الينا منها الا النزر القليل المشكوك في صحته.

[٤] القرآن هو وحده الاثر العربي الموثوق به الذي صور لنا النثر الفني الجاهلي.

[٥] القرآن كما صور لنا نثر الجاهلية دلنا على انه كان لهم حياة عقلية وعلوماً لغوية.

—*!?!*»—

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net